مواقف الفقهاء البيظان من الحضور الأوربي في منطقة حوض نهر السنغال
من القرن 17 إلى القرن 20

محمد الأمين ولد سيدي أحمد*

يأتي اهتمامنا بهذا الموضوع من قبيل الأهمية السياسية والاقتصادية والإستراتيجية لمنطقة حوض النهر السنغال بالنسبة للأوربيين والبيظان، وتنوع مظاهر الصراع بينهما من أجل السيادة عليها خلال القرون الأربعة الماضية، بالإضافة إلي أهمية رأي الفقهاء ــ كنخبة فكرية واجتماعية في المجتمع ــ في توجيه وتنوير ودعم.... النخب السياسية البيظانية في هذا الصراع.

ونقصد بالبيظان المجموعة البشرية الناطقة باللهجة العربية الحسانية، التي استطاعت بشكل أو بآخر السيطرة السياسية والثقافية على أجزاء واسعة من منطقة الصحراء شملت موريتانيا، وأجزاء من السنغال ومالي والنيجر والجزائر والمغرب.

و قبل الحديث عن هذه المواقف نود أن نشير إلي أن الحضور الأوربي في منطقة حوض نهر السنغال ظهر في البداية تجاريا بحتا، ثم بدأ الطابع الاستعماري يتسلل إليه ابتداء من القرن التاسع عشر حتى استطاع في النهاية الاستيلاء عليها مع مطلع القرن العشرين على يد الفرنسيين.

---

*- أستاذ باحث بقسم التاريخ/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية

كما نود أن نشير إلي أن هذا المجال المعروف ببلاد البيظان كان قد تم توزيعه إلي مناطق نفوذ سياسي للمجموعات العربية الحسانية عن طريق مجموعة من التنظيمات السياسية الأميرية والمشيخية سيطر كل واحد منها على جزء منه بدء بأولاد رزق ولبرابيش... وانتهاء بالإمارات والمشيخات المغفرية أو المتمغفرة التي توزعت البلاد ابتداء من النصف الأول من القرن السابع عشر في سياق وتبعات الانتصار المغفري على أولاد رزق في معركة انتتام سنة 1630م.

و سنحاول فيما يلي استبيان هذه المواقف من خلال التتبع للآراء النظرية لأصحابها ومواقفهم العملية، وذلك من خلال ثلاثة محاور رئيسية، نتناول في الأول منها مواقف وآراء فقهاء الفترة التي سبقت القرن التاسع عشر، وفي المحور الثاني نحاول تتبع آراء فقهاء القرن التاسع عشر بوصفة قرن التميز السياسي والثقافي في بلاد البيظان نتيجة لما أحرزته تنظيماتهم السياسية من سيطرة على المجال قدرة على تأمين الثغور، وما حققته منظومتهم الثقافية وخاصة في جانبها الإفتائي من تميز وانتشار.

أما في المحور الثالث، فسنتناول المواقف الفقهية لفقهاء النصف الأول من القرن العشرين الذي تم فيه احتلال البلاد بشكل نهائي من طرف الفرنسيين، بما فيها من تنوع واختلاف في الاستدلالات والمفاهيم النقلية والعقلية يعكس التباين في مستويات الاطلاع عند هؤلاء الفقهاء، وقدراتهم الاجتهادية والاستنباطية، .

1ـ مواقف فقهاء البيظان من الحضور الأوربي في حوض نهر السنغال خلال القرنين 17و18م.

حسب ما اطلعت عليه من وثائق، فإن أولى المواقف الفقهية المسجلة في المنطقة من الحضور الأوربي تعود إلى النصف الثاني من القرن السابع

عشر الميلادي. وقد سجل هذا الموقف في شكل العداء الذي أبداه فقهاء حركة ناصر الدين للفرنسيين المتمركزين في ميناء سينت الويس، المتمثل في رفض التعامل معهم وتحريض السكان على عدم المتاجرة معهم، سواء تعلق الأمر بتحريم موادهم التجارية المتبادلة مع السكان أو بتشويه صورتهم عند العامة وتصويرهم كغول آكل للبشر يتحين الفرص للانقضاض علي أي إنسان متخذين من تجارة العبيد وسيلة لإقناع السكان بما صوروه لهم[1].

وقد كان لتلهف الفرنسيين إلى شراء العبيد و السطو عليهم ــ بوصفهم التجارة الرابحة في أوربا وقتها ــ الدور البارز في تسلل التصور الذي وضعه الفقهاء عن الفرنسيين كحقيقة إلى نفوس غالبية السكان في المنطقة وتحكمه في مخيلتهم كتصور عن الأوربيين فترة طويلة ظلت بقاياه موجودة في جيوب من المنطقة حتى بعد الاحتلال الفرنسي لها.

و مع تحكم هذا التصور من نفوس سكان المنطقة، فإن الظروف الاقتصادية الصعبة التي أصابت البلاد بعد حرب شربيه الناتجة عن هلاك المواشي و انحسار التجارة الصحراوية أمام المد التجاري الأطلسي شكلت ــ مع اكراهات أخرى ــ عامل تخلخل في موقف الفقهاء المتشدد ضد الأوربيين، فبدأ التأويل والاحتيال يدخلان أذهانهم بحثا عن مبررات للاستفادة من التجارة مع الأوربيين. وإن وجد منهم من ظل متمسكا برأي سابقيه دون محاولة إقناع اقرب المقربين إليه به، فتكونت بذلك ثلاث اتجاهات اتخذ كل واحد منها موقفا محددا من التعامل مع الأوربيين، نترك الحديث عنها للفقيه

---

[1] ــ محمد المختار ولد السعد: حرب شربيه، أو أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي الموريتاني، مطبعة المعهد التربوي الوطني، نواكشوط، 1995، ص 146

والد ولد خالنا المتوفي 1212 هـ[1] في فتواه التي استهلها ب" سألت شيخنا الأمين بن الماحي[2] عن حكم السفر إلي سفن النصارى [الأوربيين] وقصر الصلاة إليها فقال: اعهد شيخنا مينحنا[3] يقول: أدركت ثلاثة ممن يقتدي بهم من أسلافنا لهم في شان السفر أحكام مختلفة أبوحيد المختار بن يحي[4] وكان أورع أهل زمانه، وصبارة بن بللحمد[5] وكان كذلك، و الفقيه الفاضل بن باركلله[6]، فأما الأول فكان لا يتسبب في شان العلك وإذا تأهب له أولاده ينهى عبيده أن يعينوهم ولو بحلاب بقرة، وأما الثاني فكان يسعى في تحصيله ويحمله إلى السفن الغربية فإذا أتى المرسى قال لمجير السفن هدى[7] أو غيره: هذا العلك بعته منك بكذا فاصنع به ما شئت، وأما الثالث فكان يتدبر فيه ويتجر به ويبيعه للنصارى فإذا اخذ ثمنه قال تأولت فيه معتمدا فيه على قول خليل" واغتفر غرر يسير للحاجة لم يقصد" وكان شيخنا مينحنا يتم في ذهابه ويقصر في إيابه، واعهد أنا محمد العاقل[8] كذلك"[9].

---

[1] ــ فقيه ومؤرخ مشهور عاش في ملتقي القرنين 12 و13 هـ، له مؤلفات عديدة عن تاريخ البلاد.

[2] ــ من فقهاء بني ديمان عاش في القرن الثامن عشر وكان من الأشخاص الذين يقتدي برأيهم الفقهي في البلاد.

[3] ــ من فقهاء بني ديمان عاش في القرن السابع عشر خلف عدة فتاوى.

[4] ــ من فقهاء بني ديمان عاش في القرن السابع عشر.

[5] ــ من فقهاء بني ديمان عاش في القرن السابع عشر.

[6] ــ من فقهاء بني ديمان عاش في القرن في أواخر القرن السابع عشر.

[7] ــ هدى بن أحمد بن دامان ثاني أمراء الترارزة ،وقائد المغافرة في حرب شربيه.

[8] ــ من فقهاء و سادة القرن الثمن عشر، له عدة فتاوى.

[9] ــ راجع نص الفتوى في: يحي بن البراء: "مواقف الفقهاء الموريتانيين من الاستعمار الفرنسي"، مجلة الضياء، العدد7، نوفمبر 1997، المطبعة الفورية، نواكشوط، ص 81.

وقد لا يخفى على القارئ هنا أن التأويل قد طغي على هذا الجيل من الفقهاء، فأفضى إلي تشريع التعامل مع الأوربيين بطرق ملتوية تختلف من فقيه لآخر، فقد تورع الفقيه الأول عن المتاجرة مع الأوربيين لكنه لم يمنع أبناءه منها، أما الثاني فقد اتخذ من الوسطاء غطاء لتعامله مع الأوربيين، في حين كان الثالث واضح الرؤية في تعامله معهم. وهذا ما يجعلنا نتصور أن عامل عدم التعود و الخوف من غير المألوف كان من أهم العوامل المؤثرة في موقف الفقهاء السلبي من الأوربيين ساعتها، خاصة أن الوجود الأوربي وقتها كان تجاريا بحتا في ظاهره لا خطر منه على البلاد ولا على الدين، اللهم إلا إذا كان هؤلاء الفقهاء على اطلاع بالتطور الحاصل في أوربا وقتها و يستشرفون ما سوف ينتج عنه من سيطرة أوربية على العالم فيما بعد، وهذا ما نستبعده لعدم شيوع هذا النوع من التفكير في العالم الإسلامي وقتها، وانعزال هؤلاء الفقهاء عن أي مؤثر خارجي يوصل إليهم ما يحدث من تطور في أوربا.

و الظاهر أن عملية تقنين علاقات الإمارات البيظانية التجارية مع الأوربيين خلال القرن الثامن عشر و الاستقرار الذي شهدته، وتعود المجتمع على التعامل مع الأوربيين، كانت عوامل مهمة في تغيير مواقف الفقهاء من التعامل معهم، بحيث أصبح يوجد من الفقهاء من يشرف بنفسه على عملية المبادلة التجارية ويوقع الاتفاقات ويشارك في خفارة السفن الأوربية[1]. وعلى وعلى هذا النهج سار فقهاء القرن التاسع عشر، و إن كانت صدامات

[1] ــ نفس المرجع السابق، ص82.

الإمارات مع الفرنسيين قد لعبت دورا مهما في تذبذب تلك المواقف كما سنرى.

2 ـ مواقف الفقهاء من الحضور الأوربي في حوض نهر السنغال خلال القرن 19 م.

أشرنا في بداية هذه المحاولة البحثية أن الحضور الأوربي في منطقة مصب نهر السنغال بدأ يتحول من طابعه التجاري البحت إلى الطابع الاستعماري مع بداية القرن التاسع عشر عندما استأثرت فرنسا بمركز سنت الويس التجاري بموجب اتفاقية أفينا سنة 1815 التي أعادت إلي فرنسا ممتلكاتها ـ التي كان الانكليز و حلفاؤهم قد استولوا عليها خلال فترة الحروب النابليونية ـ مقابل التخلي عن تجارة العبيد و العودة إلي النظام الملكي.

إلا أن العجز الذي أصاب ميزانية فرنسا بسبب مصروفاتها على الحروب النابليونية وتحريم تجارة العبيد التي كانت تشكل مصدرا من أهم مصادر دخلها القومي، فضلا عن ما ألحقته ثورة عبيد سان دومنيك من أضرار بمزارعها هناك، كان أعمق وأضخم من أن يتم التغلب عليه بما استعادته من ممتلكات بموجب هذه الاتفاقية .

وأمام هذا الوضع لم يجد الفرنسيون بدا من البحث عن بديل يعوضون به تلك الخسائر أو جزء منها، فكان من اختياراتهم إنشاء مستعمرة زراعية في منطقة مصب نهر السنغال لزراعة الفول السوداني المطلوب وقتها في الأسواق الأوربية لصناعة بعض المنتجات الغذائية.

وجود المنطقة التي خصصها الفرنسيون لإقامة مشروعهم عليها في مجال النفوذ التروزي جنوب نهر السنغال أدي إلي نشوب حرب بين

الطرفين سنة 1819 انتهت بتوقيع اتفاقية سنة 1821 تتيح للفرنسيين استغلال المنطقة مقابل ضرائب للترارزة.

وقد اتخذت هذه الحرب في احدي مراحلها شكل حصار اقتصادي فرضه الأمير التروزي أعمر بن المختار(1800 ــ1829) علي الفرنسيين، سعت بعض الأفراد والجماعات إلي خرقه في بعض الأحيان دون علم الأمير.

و هو ما استدعى من بعض الفقهاء السعي إلي تثبيط همم هؤلاء المخالفين ودعم موقف الأمير من خلال مجموعة من الآراء تقوم على ذم وتحريم أي نوع من أنواع الخروج علي الحصار الذي فرضه الأمير علي الفرنسيين، معتبرين أي تموين للفرنسيين بما يحاجون إليه من مواد محظورة عليهم بموجب الحصار خروجا على إجماع المسلمين وموالاة للكافرين المحرمة بنص القرءان والحديث تخرج صاحبها من دائرة الإسلام.

وقد يكون من أوضح هذه الآراء وأكثرها بسطا للأدلة العقلية والنقلية الداعمة لتقوية ضرورة الالتزام بمحاصرة الفرنسيين فتوى الفقيه احمد بن العاقل المتوفى 1828، التي جاء فيها" الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، انه من احمد بن محمد العاقل إلى من بلغه من المسلمين، إعلام بان من أعان الكافرين على المسلمين، فقد فارق جماعة المسلمين وصار من الكافرين، كما دل عليه مفهوم قوله تعالى" لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله" الآية[1]. ودلت الآية

[1] ــ سورة المجادلة، الآية 22.

على أن مودة الكافرين تنافى الإيمان" فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم"[1].

" فيجب على كل مسلم ساكن في بلد لا يقدر فيه عن ذب الكافرين عن نهب أموال المسلمين وسبي أحرارهم أن ينتقل عن ذلك المكان إلى مكان أخر يقدر فيه على ذلك، وإلا صار من الكافرين فينتقل إليهم، فان لم ينتقل احد سواء في محل القدرة أو محل الكافرين وجب على المسلمين أن يفعلوا له ما يفعلوا بالكافرين، ولا يتركونه مذبذبا لا إلي هؤلاء و لا إلي هؤلاء فمولاة الكافرين محرمة إجماعا، وقد اتفق العلماء على أن قوله تعالى " من دون المؤمنين" في قوله تعالى:" لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين"[2] لا مفهوم له[....] سواء وجدت معه ولاية المؤمنين أم لا؟".

و "بالجملة، فانا لله وإنا إليه راجعون إن كان كما شاع وذاع أن بعض المسلمين يبيع الخيل و الكندر للمشركين ويحضر لسبي أحرار المسلمين ونهب أموالهم ويعتذر بأنه مستضعف. وقد رد الله تعالى على من قال ذلك بقوله تعالى:" أو لم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها"[3]، وفي الحديث أن من فارق الجماعة شبرا أماته الله ميتة جاهلية، وان من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية. وقد اتفق العلماء على انه يجب على انه يجب جهاد الكفار مع كل إمام سواء كان برا أو فاجرا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد حبشي كأن رأسه زبيبة"، وفي كتاب الزهد للإمام احمد بن حنبل عن ابن عمر:" إذا الناس تركوا الجهاد في سبيل الله انزل الله عليهم بلاء فلا يرفعه عنهم حتى

---

[1] ــ سورة النور، الآية 63.

[2] ــ آل عمران، الآية 28.

[3] ــ النساء، الآية 97.

يراجعوا دينهم". وقد خاطب الله تعالى يهود زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله :" فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين[1]، "وتوبوا إلى الله أيها المؤمنون لعلكم تفلحون"[2] انتهى"[3].

وعندما تكررت نفس الظروف التي أفتى فيها احمد بن العاقل فتواه السابقة في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر نجد نفس الرأي الفقهي يتكرر وربما بحدة أكثر مع أجدود ولد اكتوشنى العلوي[4] حينما حث الناس على الجهاد والالتزام بالحصار الذي فرضه الأمير التروزي محمد لحبيب(1829 ــ 1860) على بيع العلك للفرنسيين في حربه مع الوالي الفرنسي في السنغال فيدرب في الفترة ما بين(1854 ــ 1858)، فيقول في قصيدته" أيها المسلمون شدوا عليهم"[5] بعد أن استعرض ما لحق بالمسلمين من أذى الفرنسيين ما نصه:

صابروا واصبروا على الجهاد بوا لحروب العــدى الكثيرين نارا
رابطوهم بكــل ثغــر مخوف بعنــاجيــج شــزبا مهـــارا
وأعــدوا مــن القوى مــا استطعتم واشتروا الخيل والقلاص المهارا

---

[1] ــ البقرة، الآية 91.

[2] ــ النور، الآية 31.

[3]- راجع النص في وثائق الأستاذ ببه بن التاه، نواكشوط، BMD .

[4] ــ أجدود بن اكتوشني بن السيد العلوي(ت1872) فقيه شهير من دعاة الجهاد المسلح ضد الفرنسيين.

[5] - راجع نص القصيدة في : الخليل النحوي: بلاد شنقيط، المنارة و الرباط ، المنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم، تونس،1998، صص 403-404 -405 .

إلي أن يقول حاثا على الالتزام بالحصار المفروض على المتاجرة مع الفرنسيين، مبينا أهمية الالتزام به في كسر شوكة الأعداء وإرغامهم على رفع الضغط عن المسلمين:

لا تعينوا بالعلك حـــزب الأعادي أتعينـــــون آثمـــا كـــــفارا
فـــاقطعوا عنهم الشـــراء حذارا أن يصروا علـــى الأذى إصـــرارا
فـــإذا ما أعنتمـــوهم أســـاءوا وأصروا واستكبـــروا استكبـــارا

وقد يكون الإحساس بالخطر الناتج عن التفوق العسكري الذي أحرزه الفرنسيون على الترارزة في المنطقة لأول مرة كان من أهم الأسباب الكامنة وراء الحدة التي امتازت بها دعوة أجدود ولد اكتوشني، خاصة وان التفوق الفرنسي في هذه الحرب بدا واضحا من بدايتها، بحيث لم تنقض السنة الأولى إلا وقد أصبحت الضفة اليسرى للنهر خاضعة للفرنسيين وانحسر وجود الترارزة إلى الضفة اليمنى، مع العجز عن إلحاق الضرر بالفرنسيين على الضفة اليسرى.

وكان الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديه[1] قد أدرك هذا الخطر وعبر عنه في قصيدته" حماة الدين"[2]، مشيرا إلي انشغال المسلمين بالدنيويات عن دينهم، مما أعماهم عن الخطر الذي يحدق بهم ، فيقول:

و لو في المسلمين اليـــــوم حـــر يفك الأســـر أو يحمى الذمارا
لفكـوا دينهم وحموه لمـــــــــا أراد الكافـــرون به الصغارى
حماة الدين إن الديـــــن صـــارا أسيرا للصـــوص وللنصارى

---

[1] – الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديه الكبير (1832 –1869) فقيه و متصوف مشهور، له مؤلفات عديدة وأشعار كثيرة.

[2] – راجع نص القصيدة في المنارة والرباط، صص 400-401.

و ربما يكون هذا الإحساس هو نفس الإحساس الذي خامر الشيخ سيديه الكبير حين استقل مكانته الروحية لتلبية رغبة الأمير التروزي محمد لحبيب في توحيد جهود الإمارات البيظانية لموجهة الخطر الفرنسي في المنطقة، او على الأقل ضمان سلامة ظهر إمارة التراررة من غدر جاراتها في حال انشغالها في الحرب مع الفرنسيين. وقد تمت هذه الخطوة في مؤتمر تندوجة[1] الذي استضافه الشيخ سيديه الكبير وجمع آراء التراررة و البراكبة و أولاد يحي بن عثمان وممثلا عن إمارة ادوعيش[2].

ويصور الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديه في قصيدته السابقة الخطر الأوربي على المنطقة في إطار الصراع الحضاري بين الحضارتين العربية و الأوربية، معللا ما يسعى إليه الفرنسيون من بسط نفوذهم على المنطقة في إطار البحث عن الثار لما لحقهم من هزائـــــم على أيدي المسلمين، وكأنه يعبر عن إحساس خامر الفرنسيين قرونا عديدة لم يستطع القائد الفرنســـــــي "كورو" "Gouraud "[3] إخفاءه عندما وقف، بعد أزيد من من خمسة قرون،على قبر صلاح الدين الأيوبي صارخا" ها نحن عدنا يا صلاح الدين ".

و يؤكد الشيخ أن هذه الروح الثأرية ظلت كامنة في نفوس الفرنسيين إلي أن وجدوا الفرصة الملائمة في الضعف الذي لحق بالإسلام

---

[1] – بئر بأوكار في أرض التراررة على مقربة من نقطة التقاء الحدود من الإمارة، اعتاد الشيخ الشيخ سيديه الكبير سكناها.

[2] – محمد الأمين ولد سيدي أحمد: تحقيق، رسائل الشيخ سيديه الكبير إلي المجموعات التروزية، التروزية، بحث لنيل شهادة المتريز، جامعة نواكشوط،1995، ص42.

[3] – قائد فرنسي أشرف على العملية الاستعمارية في سوريا، قتل في موريتانيا في ثلاثينيات القرن العشرين.

والمسلمين، وان الخيار الذي الخيار الذي سوف يأخذه الفرنسيون للثأر سوف يكون قاسيا تتحول بموجبه النساء المسلمات إلي خادمات في البيوت الفرنسية، مصورا ما سوف يلحق هذه النساء من تعذيب وإذلال وتدنيس للأعراض، محرضا قومه على محاولة يلاقي هذا المصير المحتوم إن لم يتعاضدوا ويقفوا في وجه التقدم الفرنسي في المنطقة، وذلك ما سوف نلاحظه من خلال المقطع التالي:

وروم عاينوا في الديـــــن ضعفـا فراموا كل مـــــا راموا اختيـارا
وقالـــــــــوا إن للفرص انتهازا وثـــــــاروا كي ينـالوا منه ثأرا
مهـــــا حـــــور المدمع عاطفات تخوض بها القوارير البحـــــارا
تلطمهـــا العـــلوج عـــلى خدود كســـــا ألـوانها الفزع اصفرارا
يـــدرن لهم عيونا حـــــــائرات يغرق فـيض عبرتها احـــــورارا
تكلفها نـــات الـــــــروم قسـرا بخدمتـها رواحـا وابتكـــــارا [1]

و إذا كان الشيخ سيدي محمد قد أبدى ي قصيدته هذه تخوفه من احتلال الفرنسيين لبلاده وسبي نسائها إشباعا لرغبتهم الثأرية إذا لم يهب قومه لمواجهة هذا الخطر المحدق بهم، فإن والده الشيخ سيديه الكبير قد اتخذ من رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلي هرقل منطلقا في خطبه إلى الوالي الفرنسي في السنغال افيدرب، فدعاه إلي الإسلام ليسلم وتدوم دولته مهددا إياه بشدة الانتقام وزوال السلطان إذا بقي على كفره ومعاتبا إياه على اللهجة التي خاطبه بها في رسالة وجهها إليه يرى الشيخ أنها لا تليق به لأن سلاطين عصره لم يخاطبوه بها من قبل[2].

---

[1] – الشيخ سيدي محمد ولد الشيخ سيديه، نفس القصيدة السابقة.

[2] – رسالة من الشيخ سيديه الكبير إلي الوالي الفرنسي فيدرب، مخطوط بحوزتي.

و لقد جاءت هذه الآراء كلها للتعبير عن العداء للفرنسيين وضرورة مجابهتهم في المنطقة، إلا أن هذه النبرة العدائية سوف تخف بعد إتفاقية1858 بين الترارزة و الفرنسيين القاضية بتنازل الترارزة عن الضفة اليسرى للنهر وتغيير شروط التبادل التجاري لصالح الفرنسيين، فقد اعتبر الفقهاء عهدة يجب احترامها تمنح الفرنسيين التمتع بحقوق المعاهدين من متاجرة وامن، و تفرض على السكان الكف عن أذيتهم ما لم يغدروا بالمسلمين أو يتحللوا من الاتفاقية[1].

و لم يكتف الفقهاء في هذه المرحلة بالتشريع النظري لمهادنة الفرنسيين فحسب، وإنما شرعوها عمليا عن طريق الدخول معهم في عملية التبادل التجاري من جديد وتكوين علاقات فردية بين بعضهم مع بعض الفرنسيين[2].

و على الرغم من أن ما اطلعت عليه من وثائق لا يسعفنا بموقف نظري للفقهاء من الفرنسيين في فترة ما بين الحربين السابقتين، إلا أننا نلمس من عدم تسجيل الفقهاء لمواقف نظرية من الفرنسيين، ونشاط التبادل التجاري وقتها و إشراف الزوايا عليه عمليا، دليلا على أن الموقف المهادن كان سائدا وقتها كما ساد في الفترتين السابقة واللاحقة على الحربين، خاصة أن الخطة الإفتائية في البلاد عودتنا على التعرض لكل القضايا التي تهم المجتمع المشكوك في حرمتها، أحرى إذا تعلق الأمر بالكسب والتعامل مع المخالفين في الدين.

---

[1] – راجع بهذا الشأن فتوى محنض بابه بن اعبيد في شأن النصارى، مكتبة الأستاذ بيه بن التاه، نواكشوط.

[2] – أمثال زعماء ادولحاج، راجع عنها مراسلاتهم مع الفرنسيينANS.9G1

وعلى العموم، فإن الطابع المهادن نظريا وعمليا ظل يطبع مواقف الفقهاء البيظان من الفرنسيين خلال الفترة اللاحقة على توقيع اتفاقية 1858 حتى احتلال الفرنسيين للضفة اليمنى للنهر في مطلع القرن العشرين.

3 ــ مواقف الفقهاء البيظان من الاحتلال الفرنسي للضفة اليمنى لنهر السنغال.

وقعت أحداث هذا الاحتلال في الأعوام الأولى من القرن العشرين، وبالتحديد عام 1903. وقد شكل هذا الحدث منعطفا جديدا في تاريخ البلاد، واختلفت آراء الفقهاء حوله ما بين مؤيد ومعارض.

لم يكن اختلاف الفقهاء في مواقفهم من الاحتلال الفرنسي لبلادهم نابعا من اختلاف في مرتكزاتهم العقدية أو الفقهية، وإنما كان ناتجا عن اختلاف في تقدير وضعية البلاد و مدى قدرة ساكنتها على جهاد الفرنسيين. وقد حشدت كل طائفة من الأدلة النقلية والعقلية ما تراه كافيا لتأيد موقفها ودحض موقف الطائفة الأخرى، وذلك على شكل فتاوى ومراسلات متنوعة عمل الفرنسيون على نشر وتوزيع ما يخدمهم منها في عموم منطقة غرب إفريقيا .

3ــ 1ــ موقف الفقهاء المؤيدين

تزعم هذا الاتجاه الشيخان، الشيخ سيديه بابه المتوفى سنة 1924[1] و الشيخ سعد أبيه المتوفى سنة 1917[2] اللذان خضرا إلى جانب الأمير

---

[1] – هو الشيخ سيدي محمد بن الشيخ سيديه الكبير المتوفى سنة 1343 هـ / 1924م، فقيه ومحدث أصولي وشاعر يميل إلي الاجتهاد في الفقه، شيخ زاوية صوفية قادرية بالوراثة له دور سياسي كبير في البلاد في أوائل القرن العشرين.

[2] – الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل المتوفى 1335 هـ/ 1917م شيخ تصوف قادري معروف بكثرة المريدين من الزنوج.

التروزي احمد سالم ولد أعلى(1895 ــ 1905) توقيع اتفاقية الحماية الفرنسية على بلاد البيظان في أواخر العام 1902 . وقد استغل الفرنسيون مكانة هذين الفقيهين العلمية والروحية لتثبيط همم المجاهدين ضد الاستعمار الفرنسي في البلاد والتصدي لدعوات فقهاء الدعوة إلي الجهاد.

وقد بني هؤلاء موقفهم من منطلق أن الاستعمار قدر لامناص منه لعجز أهل البلاد عن مقاومته بسبب ضعفهم وتفرق كلمتهم، ويبدو أنهم قد استقلوا هذه الفكرة من التفوق العسكري الذي أظهره الفرنسيون على الإمارات البيظانية في المنطقة من ناحية، ومن إيماءات بهذا المعنى صاغها صاحب فكرة استعمار بلاد البيظان كبولانيCappolani[1] على شكل سؤال موجه إلى الشيخ سيديه بابه جاء فيه" هل ينبغي للمسلمين أن يجاهدوا النصارى في أرض هم بها غير متعرضين لهم في شيء من دينهم، بل يساعدونهم على إتباع الدين بنصب القضاة وما أشبه ذلك، مع علم المسلمين أن لا قوة لهم على الجهاد كأهل الجهة القبلية[2]من أرض المغرب[3].

وقد أجاب الشيخ عن هذا السؤال بفتوى طويلة استهلها بعد حمد الله والصلاة على النبي " بأنه يتعين على المسلمين في هذه الحالة أن يهادنوا النصارى ولا يقصروا فيما يجلب لهم العافية ولا يتعبوا أنفسهم بالمحاربة لهم كما تشهد له قواعد الشريعة ونصوصها"[4]، ثم تعرض بالتعليل والشرح

---

[1] – كبولاني جنرال فرنسي تعلم في الجزائر له ثقافة عربية إسلامية، وضع مشروع احتلال بلاد البيظان سنة 1898، وأشرف على تنفيذه سنة 1903، قتل في تجكجة سنة 1905.

[2] – القبلية: تعني الجنوبية، وهي مأخوذة من مصطلح القبلة المعروف عند البيظان.

[3] – محمد يوسف ولد ددي: جمع وتقديم" النصوص العالمة المتعلقة ببداية التغلغل الاستعماري في موريتانيا، بحث متريز، جامعة نواكشوط، 1994، ص 24.

[4] – نفس المرجع السابق، ص24.

لآراء أقطاب المالكية[1] القائلة بجواز مهادنة الإمام للمخالفين في الدين ودفع المال إليهم إن اقتضى ألأمر مستدلا بعرض النبي صلى الله عليه وسلم على سعد بن معاذ[2] في غزوة الخندق أن يدفعوا للمشركين ثلث ثمار المدينة مقابل مقابل فك الحصار عنها[3].

و خلال عرضه للآراء التحليلية اسقط فرض الجهاد عن أهل بلاده استنادا إلي قوله تعالى" ليس على الضعفاء ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم"[4]، وقول خليل[5] في وجوب الجهاد على كل حر ذكر مكلف قادر مستطردا الأسباب التي يراها حاجزا دون مجاهدة أهل بلاده للفرنسيين، فيقول: " لا يخفى عجز أهل هذه البلاد عن مقاومة شوكة النصارى على كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد من كل جهة، كعدم اتفاق الكلمة وعدم وجود بيت المال المحتاج إليه في كل شيء وعدم وجود السلاح المساوي أو المقارب لسلاح النصارى وغير ذلك"[6].

و في النهاية توصل الشيخ إلي جواز تمكين الحاكم غير المسلم إذا لم يوجد سبيل إلي إقامة الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكينه. وقد أجاز الشيخ سعد أبيه رأي الشيخ سيديه بابه بأبيات شعرية جاء فيها:

---

[1] – من أمثال خليل بن اسحق، ابن عرفة، الخرشي....

[2] – هو سعد بن معاذ بن النعمان، أنصاري صحابي سيد الأوس وحامل رايتها يوم بدر.

[3] – محمد يوسف ولد ددي، م.س.ذ، ص25.

[4] – التوبة، الآية 91.

[5] – خليل بن اسحق المتوفي 776 هـ، فقيه مالكي مصري له كتاب" المختصر" في الفقه المالكي.

[6] – محمد يوسف ولد ددي، م.س.ذ، ص26.

قل للمحاول شـــــــاوي الشيخ سيديه لا تتعب لنفسك ذات الزيغ والأود
أتـــــــى بنبذة علـــم لا نظير لها كالدر إن برزت في سالف الأبـــد
كأنهـــــــا جمعت آي الكتـــاب وما سن النبي لنـــا في يومنـــا وغـــد
فأشدد يدك على نصوصها وعلى نقولهـــــا وافشهـــا في كل بلـــــد
شـــــــافه ولا تتكلم حـــال غيبته يا ناقلا جاهلا واكشف عن العضد[1]

و يبدو أن واقع البلاد السياسي المتفكك الناتج عن تعدد الكيانات السياسية في البلاد، والذي تدعم بالفوضى وانعدام الأمن اللذين عاشتهما الإمارات البيظانية وخاصة إمارة الترارزة ــ التي كانت تواجه الفرنسيين ــ بسبب أزمة الخلافة التي شهدتها في نهاية القرن التاسع عشر، كان حاضرا في أذهان دعاة مهادنة الفرنسيين، حين اعتبروا أن الفرنسيين سوف يحققون للبلاد الحكم المركزي الذي عجز أبناؤها عن تحقيقه طيلة القرون الماضية، وأنهم سيقيمون فيها العدل و ينشرون الأمن بضربهم على أيدي اللصوص والمنحرفين بفضل قوتهم.

ومن ناحية أخرى، فقد كان هؤلاء الفقهاء يرون في الدخول تحت السيطرة الفرنسية خلا لمشاكل بلادهم الاقتصادية وتحسينا لمستوى سكانها المعيشي، فضلا عن تيسير ممارسة الشعائر الدينية فيها، كما جاء على لسان الشيخ سيديه بابه في مقارنة بين حال بلاده والبلدان التي يسيطر عليها الفرنسيون وقتها حين قال:" ولا يخفى أن المسلمين في هذا القطر البيظاني ألآن أسوأ حالا و أضيع أنفاسا ومالا بسبب ذلك[بسبب عدم خضوعهم للفرنسيين] من السودان الذين في ملكة هذا الجنس [الفرنسيين] منذ حين، بل نسبة بينهم وبينهم فهؤلاء [البيظان] في عذاب أليم وألئك [السودان] في

---

[1] – نفس المرجع السابق، ص 27.

نعيم مقيم مع اتفاقهم أن دينهم منذ ملكوهم لم يزل في زيادة صلاح، فقد كان جلهم كفرة فصار جلهم مسلمين، وكانوا يتقاتلون دائما و يتناهبون وينهبون من دخل أراضيهم من تجار المسلمين، فصارت الحال بخلاف ذلك كله وصارت أرضهم الآن جنة من جنات الدنيا أمنا وعافية ومعاشا وتيسر الحج وسائر العبادات والأسباب فيها غاية، فليس شيء أرفق ببيظان هذا القطر ولا أصلح لهم من أن يصيروا مثلهم [السودان]، ولولا وخامة تلك الأرض على البيظان لارتحلنا إليها منذ سنين ورأيناه أصلح لسائر المسلمين. وقد علمنا حال المغرب الأوسط المعروف بأرض الجزائر وقد ملكه الفرنسيون منذ سبعين عاما وحال تونس وقد ملكوها منذ ثلاثين سنة وحال اتوات وسائر التكرور، وقد علمنا حال مصر و الهند وجاوه وهوسة بعد ملك الانكليز لهم، فلم يزل الدين قائما في هذه الأصقاع وأهله في عافية وإن قدر بعض المفاسد فمفسدة السيبة والحرب مع العجز عنها أعظم، ومن القواعد المجمع عليها: ارتكاب اخف الضررين وترك أعظم المفسدتين"[1].

ولو تفحصنا ما ذكره الشيخ هنا لوجدناه يروج الفلسفة الاستعمارية ــ ربما دون قصد ــ القائل بأن الاستعمار جاء لترقية المجتمعات المتخلفة وانتشالها من الضياع والبربرية التي تعيشها وتوصيله إلي المستوى الإنساني الراقي الذي وصل إليه الإنسان الأوربي دون تمييز في الدين أو العرق، كما نجد انه سعى إلي تسريب اليأس غلي نفوس المجاهدين من خلال ذكره للأقطار التي وقعت تحت الاستعمار الأوربي من الهند إلي المغرب والتي هي في الواقع أقوى من بلاد البيظان وأكثر تنظيما، وكأنه يريد أن يقنع

---

[1] – راجع نص الفتوى في نفس المرجع السابق، ص19.

المجاهدين بعدم جدوائية جهادهم وهو الرأي الذي يكشف عنه بصراحة في فتوى أخري كما سنرى.

و هنا لا تستبعد أن يكون الفرنسيون قد سربوا للشيخ معلومات تخدم هذه الفلسفة وان الشيخ صدق تلك المعلومات دون التمعن فيه صحتها ودون إدراك الوجه الآخر للاستعمار القائم على استنزاف خيرات المستعمرات وإثقال كاهل أهلها بالضرائب وربطها به ثقافيا عن طريق فرض لغته، خاصة إذا تعلق الأمر بالاستعمار الفرنسي المعروف عنه انه استعمار ثقافي قبل كل شيء.

وبناء على المبررات العقلية التي وضعها هؤلاء الفقهاء لتبرير موقفهم المهادن للفرنسيين المتمثل في قوة الفرنسيين وعجز السكان عن مقاومتهم وشيوع ظاهرة الاستعمار في العالم....، فقد حرموا الجهاد على أبناء مجتمعهم انطلاقا من عدم جدوائيته ونحوله إلي نقمة على أصحابه تسفك فيها دماؤهم و تسلب أموالهم وتسبى نساؤهم دون جدوى، وهذا ما ذهب إليه الشيخ سعد أبيه في " الرسالة العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرانصة"، فيقول:"... اعلم أن الجهاد المذكور هو قتال أهل الشرك والطغيان على إعلاء كلمة الله لينافسوا بذلك إلي الدخول في دين الله، وكل ذلك بشرط القوة المكافئة أو القريبة منها، ومهما اختل ركن أو شرط مما ذكر كان إلي الفتنة اقرب منه إلي الجهاد بل نقول: إن الجهاد الشرعي تعذر منذ أحقاب فكيف نطلبه اليوم؟، فإن كنت تسارع إلي الحرب لتدركه جهلا منك لحقيقته فأعلم انك تسارع إلي إيقاد الفتنة وإيجاد العدو إليك سبيلا وإمكانه من تقريبك وتسليطه على السبي لحريمك ومالك ودمك"[1].

---

[1] – نفس المرجع السابق، ص50.

وعليك أن "تفكر في أمر هؤلاء النصارى ولا تظن أنهم كالدول التي ترى، لا معاذ الله، فإن قصرا واحدا من قصورهم التي هي في البر ــ كاندر، وخاي ، ودكار ــ وغير ذلك يشتمل على ما لا يحاط به من السلاح والنفقات والجنود مما لا يكون للعثمانيين وأمثالهم وأحرى ما في معاقلهم ومواطنهم في جزائر البحر، والدليل على ذلك أني أدركت عند مجيئي للساحل جميع بلاد السودان مشحونة بالدول القوية والملوك الجبابرة والأمراء والعلماء، فما زال الفرنسيون يقتحمونهم قرية قرية ويقهرونهم ملكا ملكا عاما بعد عام إلي أن بلغوا الغاية القصوى".

" وأما نحن أهل هذه الصحراء فالغني من أهل بوادينا من عنده ذود من الإبل وهو القليل، ومن أهل فرانا من عنده حظيرة أو اثنتان من النخيل أو اعبد قليلة، وقصارى جهده أن يجمع قوت عياله إلي العام الآتي، وهذا هو أوفرنا مالا وأصلحنا حالا، وأما النصارى فالفقير منهم من يجهز جيشا كثيرا أعواما عديدة من عند نفسه دون بيوتات أموالهم ولا ينقص هذا من ماله إلا ما ينقص البحر من رام نزحه بأشداقه"[1].

وكما تصدى هؤلاء الفقهاء للجهاد ودعاته، فقد تصدوا للدعوة إلي الهجرة التي ظهرت كخيار بديل عن الجهاد عندما تيقن أهل البلاد عدم قدرتهم على مقاومة الفرنسيين، وقد سادت هذه الظاهرة في السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي للبلاد، حيث هاجت قبائل ومجموعات كثيرة عن أجزاء البلاد التي احتلها الفرنسيون إلي الأجزاء التي لا تزال حرة، واتخذوا منها

---

[1] – نفس المرجع السابق، نص الرسالة العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرانصه، صص،58،57.

إيواء وتدريب كتائبهم التي ظلت تناوش الفرنسيين و تلحق بهم الخسائر من حين لآخر.

وقد اعتبر هؤلاء الفقهاء أن خيار الهجرة بالدين من البلاد التي يسيطر عليها المخالفون في الدين لا يجب على المسلمين إلا في حالة منعهم من أداء شعائرهم الإسلامية وأن هذا الشرط لم يتحقق في المناطق التي احتلها الفرنسيون مشيدين بما حققه الفرنسيون من تهيئة الظروف لتأدية الشعائر الدينية في المناطق التي يتولون إدارتها، كبناء المساجد وتعيين قضاتها والصرف عليهم من الخزينة الفرنسية، وتسهيل طريق الحج بما سخروه من وسائل نقل عصرية كالبواخر والسيارات[1].

ومن جهة أخرى كان الفقهاء يرون في الهجرة إجحافا بالمسلمين عديم الفائدة" لاسيما مع عدم الإمكان و عدم وجود أرض لائقة يقام فيها الدين كما ينبغي لا سبيل للدولة المسيحية عليها"[2]، مذكرين بالاكتساح الأوربي للعالم وأنه لا فرار من مكان نفوذ فرنسي إلا إلى مكان نفوذ أوربي آخر.

و لم يقتصر دور هؤلاء الفقهاء على تثبيط همم المجاهدين و الوقوف في وجه الهجرة من المناطق التي يحتلها الفرنسيون فحسب، فما إن بدأت فلول المجاهدين تتراجع أمام التغلغل الفرنسي في البلاد حتى بدأوا في تأكيد وجوب طاعة السلطة الفرنسية في سياق تشريعي يتخذ من الخلفية العقدية الأشعرية للسكان منطلقا للوصول إلى هدفه. وقد كان منطلقهم مبني على وجوب طاعة المتغلب ولو كان مخالفا في الدين إذا عجز عن تنصيب الإمام العادل المقيم للحدود، ربما من باب تطويع العقيدة للواقع السياسي المبني

---

[1] – نفس المرجع السابق، نص رسالة الشيخ سيديه بابه إلي أهل افريقية، ص36.

[2] – نفس المرجع، ص28.

ى مبدإ" الضرورات تبيح المحظورات، كما جاء على لسان الشيخ سيديه بابه حين قال نقلا عن خليل:" وأما العجز والإضرار و استيلاء الظلمة والكفار وتسلط الجبابرة والأشرار، فقد صارت الرياسة الدنيوية تغلبية وبنيت عليها الأحكام الدينية المنوطة بالإيمان ضرورة، ولو يعبأ بعدم العلم و العدالة وسائر الشرائط، والضرورات تبيح المحظورات"[1].

و في رسالة أخرى يحيل الشيخ سيديه بابه إلى البناني[2]، بأنه تجب طاعة من تغلب كائنا من كان[3]خوفا من الفتنة، وأن شروط الإمامة تسقط عن من تغلب تجسيدا لمبدأ من اشتدت وطأته وجبت طاعته[4].

وقد حاول الشيخ سيديه بابه وزملاؤه الاستفادة من واقع البلاد السياسي المتفكك في تبرير دعوتهم إلى وجوب طاعة السلطة الفرنسية التي يرون أنها وحدت البلاد و أقامت فيها العدل بضربها على أيدي المتلصصين مستدلين بما روي عن علي بن أبي طالب في ذم الفتنة حين قال:" إمام عادل خير من مطر وابل وأسد حطوم خير من سلطان ظلوم وسلطان ظلوم خير من فتنة تدوم"[5]، وما روي عن مالك بن أنس" سلطان جائر سبعين سنة خير من أمة سائبة ساعة من نهار"[6].

---

[1] – نفس الرجع، ص33.

[2] – هو محمد بن الحسن بن مسعود البناني فقيه مالكي من أهل فآس خطيب الضريح الإدريسي وإمامه له كتب منها، الفتح الرباني وهو حاشية استدرك بها على الزرقاني، توفي 1194 هـ .

[3]– راجع نص رسالة الشيخ سيديه بابه إلي ولد حبث، في مجمد يوسف ولد ددي، م. س. ذ، 22.

[4] – راجع نص رسالة الشيخ سيديه بابه إلي أهل إفريقيه في نفس المرجع السابق، ص34.

[5] – نفس المرجع السابق ، ص31.

[6] – نفي المرجع السابق ، ص 31.

و لو تتبعنا موقف هذه المجموعة من الفقهاء المهادنة للاستعمار الفرنسي لوجدنا انه قائم على المبدأ الفقهي المالكي" جلب المصلحة ودرء المفسدة"، فقد كانت كل تصرفاتهم و آرائهم تقوم على تشخيص لواقع بلادهم السياسي والعسكري واطلاع على مقدرات الفرنسيين العسكرية والاقتصادية التي مكنتهم من احتلال البلدان الأكثر قوة وتنظيما من بلاد البيظان. و هذا ما جعلهم يخرجون بتصور حتمية الاستعمار وعدم جدوائية الوقوف ضده، ولا شك أن للفرنسيين دورا كبيرا في تسريب هذا التصور إلى أذهان أولئك الفقهاء بما وفروه لهم من معلومات عن واقع البلدان الإسلامية الواقعة تحت الاستعمار الأوربي وعجز العثمانيين عن تخليصها، بالإضافة إلى ما بثوه في نفوسهم من رعب من خلال ما أطلعوهم عليه من معدات حربية غير مألوفة عند فقهاء عزل يعيشون في مجتمع صحراوي بدوي تقتصر معداته على البنادق والخناجر[1].

فقد كانت كل تعليلات هؤلاء تنبع من حرصهم على مصلحة بلادهم و الحفاظ على أمنها وتجنيبها أضرار مواجهة قوة قهرت شعوبا و مجتمعات أكثر قوة، وتملك من المعدات و الآلات ما يجعل الوقوف في وجهها رميا بالنفس إلى التهلكة المنهي عنه بنص القرءان الكريم. هذا من باب درء المفسدة، أما جلب المصلحة فقد كانوا يرون في السيطرة الفرنسية على البلاد جمعا لشملها السياسي ورفعا لمستواها الاقتصادي... قياسا على البلدان الإفريقية التي كان الفرنسيون يسيطرون عليها منذ عقود من الزمن.

---

[1] – يمكن ملاحظة ذلك بوضوح في" الرسالة العامة والخاصة في التحذير من محاربة الفرانصة" نفس المرجع السابق، ص57.

و من ناحية أخري فقد اتخذ موقف هؤلاء الفقهاء شكلا متدرجا بدأ بالدعوة إلى المهادنة وانتهى بالدعوة إلى وجوب طاعة السلطان الفرنسي مرورا بإسقاط الجهاد والهجرة عن أهل بلادهم. وهنا يتراءى أمامنا تفسيران لهذا التدرج، يحيل أولهما إلي تحفظ الفقهاء على موقفهم من الفرنسيين، وبالتالي العمل من اجل تكييف فتواهم مع مستوى الحضور الفرنسي في البلاد خوفا من شل المجاهدين عن تجريب قدراتهم ضد الفرنسيين حتى يتأكدوا- اعني الفقهاء- من صدق تصورهم عن عدم التكافؤ بين الطرفين.

أما التفسير الثاني، فينبع من تحكم الفرنسيين من هؤلاء الفقهاء وتوجيههم حسب هواهم، فيكون الفقهاء بذلك التدرج اقتراحا فرنسيا لامتصاص معرضة السكان لوجودهم، فأرادوا إتباع خطوات تلائم كل واحدة منها مستوى تحكمهم في البلاد حتى لا تأتي الدعوة إلى وجوب الطاعة فجائية، وفي وقت لم يتمكنوا فيه من إحكام سيطرتهم على البلاد، مما يؤدي إلى اشتداد السخط عليهم خاصة من طرف السلطات الأميرية التي ترى في هذه الدعوة قضاء على سيادتها في البلاد، وبالتالي يصبح هذا التدرج تكتيكا فرنسيا يملى على الفقهاء حسب توقيت زمني محدد تكون فيه السلطات الفرنسية قد اتخذت الإجراءات اللازمة لمواجهة آثاره السلبية حسب قوة تموقعها في البلاد وتمكنها من إسداء الضربات إلى المعارضين لمستوى الممارسة السلطوية المصاحبة لكل خطوة من الخطوات السابقة.

وأيا كانت الأسباب الكامنة وراء هذا التدرج، فإن موقف هؤلاء الفقهاء قد خدم السياسة الاستعمارية واوهن عضد السكان في الدفاع عن بلادهم بل أحالهم إلي متقاتلين فيما بينهم، خاصة بعد فتوى وجوب طاعة السلطان الفرنسي، حيث انضمت مجموعات عديدة إلى الخدمة العسكرية الفرنسية فتحولت في عيون المجاهدين إلي أعداء بحكم موالاتها للنصارى

علي حساب المسلمين التي نهي عنها الله عز وجل، كما أن حرص الفرنسيين على سلامة جنودهم وضرب السكان بعضهم ببعض كان وراء إسناد مهمة متابعة المجاهدين إلي الجنود البيظان، مما أدى إلي كثرة الصدامات والأضرار في صفوف السكان دون إلحاق ضرر يذكر بالفرنسيين.

3 ــ 2 ــ موقف فقهاء الدعوة إلي الجهاد والهجرة

وقف هؤلاء على النقيض من أصحاب الدعوة السابقة واستلوا أقلامهم لتسفيه آرائهم وتحريم الانصياع لدعوتهم. وقد اتخذ هؤلاء من الآيات والأحاديث الداعية إلي الجهاد وتحريم موالاة اليهود والنصارى سلاحا لتأكيد موقفهم من الاستعمار والمتعاونين معه، ولم يهتموا بالتأويل والاجتهاد والقياس كما فعل معرضوهم. وفي بعض الأحيان لم يقتصر دور هؤلاء الفقهاء على المقارعة النظرية لنظرائهم من دعاة مهادنة الفرنسيين، فوجد منهم من حمل السلاح وجمع المتطوعين ونظم صفوفهم وشن غارات على مواقع الفرنسيين و الموالين لهم.

لم يهتم أصحاب هذا الرأي بالمتغيرات العالمية الحاصلة وقتها ولم يولوا قوة الأوربيين ولا ضعف المسلمين أي اهتمام، وإنما كان موقفهم من منطلق فرضية قوة المسلمين وقدرتهم على دحض التقدم الأوربي. وقد اتخذوا من بعض المعارك التي كسبها المجاهدون ضد الفرنسيين شواهد لتأكيد تصورهم[1]، وكانوا يرون في مهادنة الفرنسيين إذلالا للإسلام وكسرا لشوكته وتشجيعا لأعدائه على ضربه في الصميم.

---

[1] – الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل: هداية من حار في أمر النصارى، مخطوط بحوزتي نسخة منه.

وقد كان هؤلاء يرون أن الجهاد هو الأولى، فإن تعذر فالهجرة إلي بلاد مستقلة عن سلطان المخالفين في الدين مستدلين بآيات الحث على الجهاد:" يا أيها الذين امنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار" التوبة/ الآية 123، "فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم" التوبة/ الآية 5،" واقتلوهم حتى لا تكون فتنة" البقرة/الآية 193،" كتب عليكم القتال وهو كره لكم" البقرة/ الآية 216،" ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين" المائدة/ الآية 51.

و كان أول منطلق انطلق منه أصحاب هذا الاتجاه هو تحديد العلاقة بين المسلمين وغيرهم ممن خالفوهم في الدين، فقسموهم إلي ثلاثة أنواع:" نوع منهم يقاتلون حتى يسلموا إذ لا يقبل منهم إلا الإسلام و هم مشركوا العرب والمرتدون، أما مشركوا العرب فلأن النبي عليه السلام بعث منهم فظهرت المعجزات لديهم فكفرهم يكون فحشا، وأما المرتدين فلأنهم عدلوا عن دين الحق بعد اطلاعهم على محاسنه فيكون كفرهم أقبح، والعقوبة على قدر الجناية وفي وضع الجزية تخفيف لهم فلم يستحقوه. ونوع آخر يقاتلون حتى يسلموا أو يعطوا الجزية وهم اليهود والنصارى والمجوس، أما اليهود والنصارى فبهذه الآية [....]، وأما المجوس فبقوله عليه السلام" سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نساءهم وآكلي ذبائحهم". و النوع الثالث منهم الكفرة الذين ليسوا مجوسا ولا أهل الكتاب ولا مشركي العرب، كعبدة الأوثان من الترك والهند ذهب أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله إلي جواز اخذ الجزية منهم لجواز اجتماع الدينيين في غير جزيرة العرب، وهم من غير العرب. انتهي المراد منه هنا"[1].

---

[1] – نفس المصر السابق.

وهنا يكون الفقهاء قد صنفوا الفرنسيين في الفئة الثانية التي يجوز تركها على دينها والتعامل معها بحكم نصرانيتهم، لكن هذا التعامل ظل مرهونا عندهم بشروط حددوها انطلاقا من قوله تعالى في سورة التوبة/ الآية 29: " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".

و قد حدد الفقهاء إجراءات عملية عند أخذ الجزية فسروا بها الآية محيلين إلى شروح خليل بن اسحق" بعد الكلام على أنواع الجزية عند قوله:" مع الإهانة عند أخذها أي و تؤخذ كل من الجزيتين مع الإهانة وجوبا أي الإذلال والشدة لهم عند أخذها لقوله تعالى: "حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون"، ويصفع على قفاه ولا يقبل من النائب بل كل واحد منهم يعطيها بنفسه لأجل إهانته عسى أن يكون ذلك سببا لدخوله في الإسلام [....]لأن المقصود حصول الإهانة والإذلال لكل احد بعينه عسى أن يكون ذلك مقتضيا لرغبتهم في الإسلام"[1].

أما دخول المخالف في الدين إلي أرض المسلمين وبناؤه فيها، فقد ربطه هؤلاء الفقهاء بإذن الإمام المقيم للحدود الذي يرون أنه معدوم الوجود في بلادهم

وقد رأى هؤلاء الفقهاء في حالة الفرنسيين في بلادهم خروجا عن تلك الشروط فاعتبروا أنهم دخلوا البلاد عنوة وبغير إذن وأهلها، كما أن دخولهم ككيان متماسك قوي يفرض سلطاته استحال معه توفر الظروف الملائمة لأخذ الجزية منهم أحرى اهانتهم أو إذلالهم. ومن ناحية أخرى فقد

---

[1] – نفس المصدر السابق.

كانوا يرون في التعامل مع الفرنسيين بشكل جمعي خروجا عن شروط التعامل مع آحاد أهل الكتاب في حال معاداتهم.

و انطلاقا من هذه التصورات اعتبرت هذه الجماعة ان أي تعامل مع الفرنسيين في هذه الحالة تشجيع لهم على تنفيذ رغبتهم في فرض ملتهم التي ربط الله تعالى رضاهم عن المؤمنين بإتباعها في الآية 119 من سورة البقرة" ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم"، ولذلك فقد اعتبروا الجهاد الخيار الأمثل من اجل الوقوف في وجه تلك الرغبة.

و من ناحية أخرى فقد تصدى أصحاب هذا الخيار لدعوة المهادنة التي دعي إليها فقهاء غيرهم، فاعتبروها خذلانا للإسلام و المسلمين و موالاة الكافرين المنهي عنا بنص التنزيل في أكثر من موضع:" يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين"، النساء /الآية144، "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء" المائدة/الآية 51....، كما وصل بهم الأمر إلي عدم التفريق بين الفرنسيين والمهادنين لهم من المسلمين استنادا إلي الآية 51 من سورة المائدة " ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين".

و على هذا الأساس كانت الدعوة إلي الهجرة عن المناطق التي يحتلها الفرنسيون و رفض التبريرات التي قدمها الفقهاء الآخرون لمنع الهجرة، كاشتراط القدرة عليها واشتراط توجه المهاجرين إلي أرض بها سلطان يستطيع حمايتهم. وفي هذا الإطار يقول سيد المختار بن محمد عينين[1] ردا على شيخه "... و غفلتك عن معنى الهجرة والاستضعاف هي

---

[1] – هو الشيخ سيد المختار بن سيدي أحمد بن محمد عينين من فقهاء و متصوفة ملتقى القرنين 19 و20، عرف بآرائه المعادية للاستعمار الفرنسي، من كبار دعاة الجهاد ونصب الإمام والهجرة عن الفرنسيين.

السبب أيضا، وانظر يرحمك الله ما اشد عجز المسلمين عن الهجرة إلي السلطان، فلو لاحظت أن الهجرة إنما هي إلي الله ورسوله كما اخبر بها في غير ما آية وحديث ولاحظت قسم خندع بن ضمرة الليثي على القدرة إلي الهجرة من مكة إلي المدينة مع ما تضاعف به حينئذ من الكبر و المرض لما حكمت علي جميع أهل هذه البلاد بالعجز عن الهجرة إلي الله ورسوله بل ولا إلي ارض السلطان التي زعمت أن الهجرة إنما إليها [....] واعلم أن هذا الانتقال انتقال المسلم من بلد لمثله اقل فيه الحرام يجب أيضا على الكثير منا لقدرته عليه، وتقديم مصلحة واحدة من مصالح الدين على جميع مصالح الدنيا كما تقدم، وإنما تركه لإيثار الدنيا على الآخرة الذي قل من يتخلص منه لا لعجزه عنه ولا لملاحظته لما سيأتي ولذا تجد كثيرا منا يسافر السفر البعيد كثير المشاق كالحج الذي لم يجب عليه إن لم يكن حراما عليه، وأكثر من يسافر كذلك للتجارة ، بل تجد حيا منتقلا بخيامه لبلد بعيد لإصلاح ماله ولطلب الرياسة ولا يمنع الكل العجز..."[1]

وقد اشترط هؤلاء الفقهاء للتخلي عن الجهاد واللجوء إلى الهجرة العجز عن الجهاد بعد تجريبه، ولا ينبغي أن يحدث ذلك إلا بعد المواجهة مع العدو، والتأكد من العجز عن مواجهته لتفوقه على المسلمين عددا وعدة بأكثر من ضعفهم[2].

و على العموم، فقد ساهم موقف أصحاب هذا الاتجاه في تفعيل المقاومة ضد الاستعمار فألحقت به بعض الأضرار قد لا تقارن بما لحق المجاهدين من أضرار، إلا أنها أوغرت صدر الفرنسيين و حولت حلمهم في

---

[1] – سيد المختار بن محمد عينين: فتوى بشأن دخول النصارى، مخطوط بحوزتي نسخة منه.

[2] – أحمد بن الحسين بن مادي : فتوى بشأن الاستعمار، مخطوط بحوزتي نسخة منه.

احتلال البلاد بدون ثمن إلي سراب. وقد جاء الثمن في بعض الأحيان غاليا بالنسبة إليهم، كاغتيال مهندس العملية الاستعمارية كبولاني وغيره من كبار الضباط. ومن جهة أخري، فقد كان موقف هؤلاء الفقهاء نواة لمقاومة ثقافية أرهقت الفرنسيين طيلة نصف القرن الذي قضوه في البلاد وأحبطت سياستهم الساعية إلي فرنسة البلاد و مسخها ثقافيا وحضاريا[1].

إلا أنه قد يؤخذ على أصحاب هذا الاتجاه تشددهم اتجاه أبناء بلدهم الذين لم يهاجروا عن أماكن النفوذ الفرنسي وتوجيه الضربات إليهم كما لو كانت موجهة إلي الفرنسيين أنفسهم، مما حول تعاطف هؤلاء معهم إلي سخط وثأر متواصل تحول معه الجهاد إلي فتنة بين أهل البلاد، واقتصر دور الفرنسيين على دعم مهادنيهم بالسلاح والتوجيه مستغلين الوضع إلي تحويل الجهاد ضدهم إلي حرب ثأرية قديمة بين مجموعات متناحرة، مما جعل فقهاء المهادنة يستغلون هذا الوضع لتحويل المجاهدين إلي مثيري فتنة لصوص خارجين عن إجماع الأمة[2].

وعلى الرغم من خطورة تطور نفوذ الأوربيين ــ السابق الذكر ــ على نفوذ البيظان في منطقة حوض نهر السنغال، فقد ظل منطلق فقهائهم من ذلك الحضور منطلقا دينيا بحتا يعتمد في الأساس علي حماية بيضة الإسلام وذم التعامل مع المخالفين في الدين" النصارى" دون أن يكون للدافع الوطني وحمايته ضد المحتلين حضورا يذكر في هذه المواقف، بل إن الغالبية كانت تشجع الهجرة عن المناطق التي يحتلها المستعمر والبحث في أرض الله الواسعة عن مكان يمارس فيه المجتمع شعائره الدينية بعيدا عن

---

[1] – المنارة و الرباط، م. س. ذ، ص 338.

[2] – راجع نص فتوى الشيخ سعد أبيه" النصيحة العامة و الخاصة في التحذير من محاربة الفرانصة" في محمد يوسف ولد ددي،م . س. ذ، ص 12.

مناطق النفوذ الاستعماري حتى ولو كلفهم ذلك الخروج من بلادهم نهائيا، على أساس أن الاستعمار لم يأت إلا لتغيير دينهم وجبرهم على اعتناق دينه، وتأسيا بفرار المسلمين بدينهم إلي الحبشة أولا ثم إلي المدينة المنورة ثانيا.

و لعل ذلك ما يفسر الترابط الظاهر بين آراء الفقهاء حول الحضور الأوربي في المنطقة و التطورات الحادثة في الإمارات البيظانية سلبا وإيجابا، فكلما كانت هذه الإمارات قوية كانت مواقفهم من الأوربيين أكثر ليونة على اعتبار أنهم ذميين معاهدين، أما إذا مال ميزان القوى لصالح الأوربيين تشتد لهجة الفقهاء اتجاههم ربما كتعبير عن الإحساس بالخطر الذي يمثلونه.

ولا يعنى هذا انه لم يوجد من الفقهاء من ألان القول للأوربيين في فترات قوتهم، بل على العكس من ذلك وجد منهم من رأى في الأوربيين منقذا للبلاد من الفوضى السياسية التي تعيشها خاصة في فترة ملتقى القرنين التاسع عشر والعشرين، مما احدث التنوع في الآراء الفقهية التي ظهرت مع مطلع القرن العشرين ربما بسبب التنوع في المواقف السياسية للسلط السياسية الأميرية ــ هي الأخرى ــ الناتج عن أزمات الخلافة التي شهدها النظام الأميري في نهاية القرن التاسع عشر، وانتهت بالقضاء عليه بعد سيطرة الفرنسيين على البلاد في النصف الأول من القرن العشرين.

قائمة المصادر والمراجع

- أحمد بن الحسين بن مادي: **فتوى بشأن الاستعمار**، مخطوط بحوزتي نسخة منه.
- احمد بن العاقل: **فتوى بشان التعامل مع النصارى**، وثائق الأستاذ ببه بن التاه، نواكشوط،BMD

- الخليل النحوي: **بلاد شنقيط، المنارة و الرباط** ، المنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم، تونس،1998.
- سيد المختار بن محمد عينين: **فتوى بشأن دخول النصارى**، مخطوط بحوزتي نسخة منه.
- الشيخ ماء العينين بن الشيخ محمد فاضل: **هداية من حار في أمر النصارى**، مخطوط بحوزتي نسخة منه.
- الشيخ سيديه الكبير: **رسالة إلى الوالي الفرنسي في السنغال فيدرب**، مخطوط بحوزتي.
- محمد الأمين ولد سيدي أحمد: تحقيق، **رسائل الشيخ سيديه الكبير إلى المجموعات التروزية**، بحث لنيل شهادة المتريز، جامعة نواكشوط، 1995.
- محمد المختار ولد السعد: **حرب شربيه، أو أزمة القرن السابع عشر في الجنوب الغربي الموريتاني**، مطبعة المعهد التربوي الوطني، نواكشوط، 1995.
- محمد يوسف ولد ددي: **جمع وتقديم" النصوص العالمة المتعلقة ببداية التغلغل الاستعماري في موريتانيا**، بحث متريز، جامعة نواكشوط، 1994.
- محنض بابه بن اعبيد: **فتوى في شأن النصارى**، مكتبة الأستاذ بابه بن التاه، نواكشوط.
- يحي بن البراء: "**مواقف الفقهاء الموريتانيين من الاستعمار الفرنسي**"، مجلة الضياء، العدد7، نوفمبر 1997، المطبعة الفورية، نواكشوط .